

مقتطفات كتاب "الطب النفسي الإيقاعي التطوري" الباب الأول: " النظرية ومعالم الفروض الأساسية" (12)

نشرة "الإنسان" 2022/01/02

السنة الخامسة عشرة - العدد: 5237



yehiatrakhawy@hotmail.com

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

مقدمة:

نواصل اليوم هذا النشر المتقطع من هذا الكتاب، لعله الأهم، أن تُقرأ نشرة اليوم التي سنقدم فيها ما تيسر من الفصل الثالث، وأوصى بالبدء بقراءة نشرة أمس.

يحيى

الفصل الثالث

الخطوط العريضة للأفكار الأولى (5)



.....

ونعود الآن لاستكمال قراءة النص الباكر مع التعقيب المناسب:

كنا قد انتهينا عند بيان:

- كيف أن الظاهرة البشرية - ككل - مثل كل الظواهر الحيوية: الأدنى والأعلى، هي ظاهرة إيقاعية أساسا، وأعنى بالإيقاعية: "الذبذبة المتزامنة الدائرية المفتوحة النهائية على مسار النضج وإبداع النمو المضطرد.

ونكمل الآن من المقال الأصلي مع التعقيبات:

* إن الطبيعة الإيقاعية كامنة في الطبيعة البيولوجية الداخلية للإنسان، تلك الطبيعة الواصلة إلى ما هي عليه عبر الأجيال دائمة التكيف والتناغم مع كون إيقاعى محيط، وفى واقع الحال فإن الإيقاعية

كيف أن الظاهرة البشرية - ككل - مثل كل الظواهر الحيوية: الأدنى والأعلى، هي ظاهرة إيقاعية أساسا

أعنى بالإيقاعية: "الذبذبة المتزامنة الدائرية المفتوحة النهائية على مسار النضج وإبداع النمو المضطرد

إن الطبيعة الإيقاعية كامنة في الطبيعة البيولوجية الداخلية للإنسان، تلك الطبيعة الواصلة إلى ما هي عليه عبر الأجيال دائمة التكيف والتناغم مع كون إيقاعى محيط

إن من أهم الدوريات الإيقاعية المعروفة فيما يتعلق بالسلوك البشرى اليومي، هو التناوب الليلنهاري (اليوماوى) (2) بين النوم واليقظة، ثم داخل النوم: بين النوم النقيضى (الحالم/نوم الريم) والنوم غير الحالم

هذه الدوريات اليوماوية هي الحركة التنظيمية الدائرية للتوفيق بين تناسب جرعة المعلومات المُدخلة، وإمكانية استيعابها وتخزينها وتشغيلها وتمثيلها، وتمثيلها.

البيولوجية ذات الإيقاع الذاتي تكتسب سرمدية جديدة من خلال مطلب التوازن المستمر مع إيقاع أعلى وأدنى، إن من أهم الدورات الإيقاعية المعروفة فيما يتعلق بالسلوك البشري اليومي، هو التناوب الليلنهاري (اليوماوى) (2) (بين النوم واليقظة، ثم داخل النوم: بين النوم النقيضى (الحالم/نوم الريم) والنوم غير الحالم وهذه الدورات اليوماوية هي الحركة التنظيمية الدائبة للتوفيق بين تناسب جرعة المعلومات المُدخلة، وإمكانية استيعابها وخبزنها وتشكيلها وتمثيلها، وتفعيلها.

التعقيب:

أولاً: حين قرأت الآن تعبير "بناء المخ المستمر" رحبت به وتعجبت كيف وصلنى باكرا بهذا الوضوح من واقع الممارسة أيضاً، الأمر الذى اتضح لى لاحقاً حين وصلتى سلسلة من الإنجازات العلمية الأحدث فالأحدث تناولت هذه الحقيقة بتنوع باهر وأساليب تؤكد كيف أن "المخ يعيد بناء نفسه" باستمرار (3) واكتشفت أن هذه حقيقة نمارسها فى العلاج الإبداعى الحقيقى (نقد النقد البشرى) دون أن نسميها كذلك، وذلك من خلال إعادة النظر فى "العامل العلاجى" فى العلاج عامة والعلاج الجمعى وعلاج الوسط خاصة.

ثانياً: حين كتبت هذه المعلومة التى وصلتى أساساً كما ذكرت فى المقدمة، لم أكن غصت فى محيط الأحلام تنظيراً، وربطاً بين هذا وذاك، وعلى الرغم من أن كل ما دَوَّنت وأشرت إليه ما زال - وسيظل غالباً لفترة ليست قصيرة - فى مرحلة الفروض - فإن رصد احتمالات آثار هذه الفروض تجريبياً (Emperical) وفينومينولوجياً باستمرار يُطمئنُ إلى صحة أن المخ دائم النشاط الإيقاعى لبناء نفسه.

*إن أشهر طورين لنبضة إيقاعية فسيولوجية هما طورى نبضة القلب، ويسميان طورى "القبض - والبسط" (4) systole-diastole، وقد حاولتُ أن أترجم هذين اللفظين ترجمة يصلح تعميمها للنبضات المقابلة فى الأجهزة الأخرى، وخاصة المخ، إلا أنى وجدت فى ذلك خطر الاختزال المشوه، أو القياس المُخل، فى المخ - لا ينقبض التركيب مثلما تنقبض عضلة القلب فيرتفع الضغط فى وعاء القلب المغلق من فتحته معاً حتى يزيد الضغط داخله عن الضغط فى الشريان المستقبِل فيندفع الدم فيه، ولكن الذى يحدث فى المخ فيما يقابلُ طور الاندفاع هو "بسط" لما هو كامن ومضوم ليلتحم جدليا بالمستوى الفاعل، كما أن هذا البسط ليس ميكانيكياً كمياً مثل القلب، ولكنه بسط فيه استعادة هيراركية ثم جدل ولافى محتمل، أما بالنسبة للطور الآخر وهو طور الاسترخاء للامتلاء، فإن عضلة القلب تتراخى فينقص الضغط ويمتلئ وعاء القلب بالدم، حتى أن هذه المرحلة تسمى مرحلة الملاء السريع فالملاء البطيء، لكن فى المخ لا يمكن قبول هذا القياس لأن هذا الطور ليس سلبياً، فهو يشمل "الإنتقاء" و"التصنيف" و"الإدماج" و"التخزين جميعاً" أو ما يسمى التفعيل أو المعالجة أو الإعتمال Processing، وبرغم كل ذلك لم أتردد فى استعمال التعبير الشائع: القبض والبسط، ولو مؤقتاً!!

التعقيب:

إن جُماع ذلك هو التأكيد على تواصل إبداع الذات بالتشكيل النمائى من خلال الإيقاع الحيوى والخلاق طول الوقت، وهذا ما يتفق مع الأحدث فالأحدث عن كيف أن المخ يعيد بناء نفسه باستمرار وانتظام.

• على مقياس طولى أبعد، نجد أن دورات النمو تمثل إيقاعاً طويلاً المدى، تتناوب فيه نبضة النمو بين طورى التلقى والاستيعاب مقابل طورى التمدد والبسط، وهما طوران متكاملان متناوبان، ولكنهما متداخلان واقعا: أولاً: لتكرارهما وتكثيف الدورات الأصغر داخلهما، وثانياً: لتعقيد تركيب المخ وطبيعة البسط والتمدد على المستوى النيورونى والخلوى بنائياً، بحيث يصبح الفصل المحدد بينهما أمراً مخالفاً للطبيعة البيولوجية النوعية للمخ الذى يتداخل ويتجادل فيه النبض بين مئات الألوف حتى الملايين فأكثر من النيورونات والمشتبكات والعمليات التشكيلية المختلفة.

أن "المخ يعيد بناء نفسه" باستمرار (3) واكتشفت أن هذه حقيقة نمارسها فى العلاج الإبداعى الحقيقى (نقد النقد البشرى) دون أن نسميها كذلك

إن أشهر طورين لنبضة إيقاعية فسيولوجية هما طورى نبضة القلب، ويسميان طورى "القبض - والبسط" systole-diastole

أما بالنسبة للطور الآخر وهو طور الاسترخاء للامتلاء، فإن عضلة القلب تتراخى فينقص الضغط ويمتلئ وعاء القلب بالدم، حتى أن هذه المرحلة تسمى مرحلة الملاء السريع فالملاء البطيء،

فى المخ لا يمكن قبول هذا القياس لأن هذا الطور ليس سلبياً، فهو يشمل "الإنتقاء" و"التصنيف" و"الإدماج" و"التخزين جميعاً" أو ما يسمى التفعيل أو المعالجة أو الإعتمال Processing، وبرغم كل ذلك لم أتردد فى استعمال التعبير الشائع: القبض والبسط، ولو مؤقتاً

التأكيد على تواصل إبداع الذات بالتشكيل النمائى من خلال الإيقاع الحيوى الخلاق طول الوقت، وهذا ما يتفق مع الأحدث فالأحدث عن كيف أن المخ يعيد بناء نفسه باستمرار وانتظام.

أن دورات النمو تمثل إيقاعاً طويلاً المدى، تتناوب فيه نبضة النمو بين طورى التلقى والاستيعاب مقابل طورى التمدد والبسط، وهما طوران متكاملان متناوبان، ولكنهما متداخلان واقعا

• إن نتاج كل دورة نمو يتوقف على مدى نجاح الدورة السابقة، كما يتوقف نجاح كل طور، على حدة، على مدى نجاح الطور السابق في القيام بوظيفته المناسبة، وأخيرا يتوقف كل هذا على تناسب الظروف المحيطة لتلقى نتاج البسط، أو لملء طور التمدد بالمعلومات ذات المعنى "وبالجرعة المناسبة". أي أن نجاح طور البسط التالي يتوقف على نجاح طور التلقى والاستيعاب والاعتماد بالكم المناسب من المعلومات، وعلى مدى نجاح تناول هذا الكم بتنظيم نسبي واستيعاب جزئي من خلال الإيقاع الليلنهاري و"الحلمنومي" يوميا- والعكس صحيح، فان طور التلقى والاستيعاب يمكن أن يمضى بكفاءة مناسبة اذا سبقه طور بسط استطاع أن يبسط المحتوى السابق فينتقى ليظهر بعضه ويتمثل البعض الآخر فيقلل من المعلومات المخزونة تحت الطلب، أو المركونة كجسم غريب فيحيلها إلى ما هو "المعلومة المتسقة الجاهزة للتمثل" مما يجعل المخ أقدر على تلقي الجديد ذى المعنى فى طور التمدد اللاحق....وهكذا.

التعقيب:

الأرجح أننى استعملت تعبير "مقياس طولى" للإشارة إلى "بعد النمو" نتيجة لنجاح هذا النبض فى القيام بمهمة التناوب، لكننى اكتشفت الآن أن كفاءة هذا التناوب وانتظامه ليس هو جوهر حركية الإيقاعى، وللتأكيد على أن التمثيل بنبضات القلب ليس هو التمثيل المناسب لأن نبض القلب يبدو أكثر ميكانيكية ورتابة منتظمة أما نبضات المخ فمع مزيد من الملاحظة ووضع الفروض والتنظير والممارسة العملية: بدت لى نبضاته إبداعية نمائية، والإبداع النمائي ليس طوليا بهذه البساطة فبدأ لى حاليا أنه قياس قاصر، لا يتناسب مع تقدم خبرتى فى النقد والإبداع وقراءة النفسراضية فى الممارسة العلاجية ثم العمل على تصحيحها بالعلاج بتقنية "نقد النص البشرى" واستيعاب جوهر ما جرى فى عملية التناص **Intertextuality** بين مستويات الوعى البينشخصية والجماعية بما فى ذلك مستويات وعى المعالج، وأعترف أننى عجزت عن توصيل تفاصيل ذلك عبر هذه العقود من النقد والممارسة، ومع ذلك آمل أن أُنجح أن أوصل بعض ما عانيت وأبلغت بأية درجة الآن:

نظرا لتعدد مستويات المخ وتعقد تركيبه، فان الواحدة جارية متغاممة بالتبادل والتكامل وكل آليات الهارموني تجرى بنظام دقيق متناوب والذى ينظم الإيقاع الحيوى فى وقت بذاته هو مستوى واحد (قائد) يعتبر بمثابة "ضابط الإيقاع" Pace Setter، أو المايسترو، فى مرحلة بذاتها، على أن هذا المستوى لا يظل هو نفسه متوليا القيادة طول الوقت بل يتبادل مع مستويات أخرى تناسقا لأطوار الإيقاع من جهة، ومع تغير الظروف وحالات الوعى ومتطلبات الواقع من جهة أخرى، لكن تظل الواحدة فى لحظة بذاتها هى الأصل مهما تعددت المستويات نابضة معا تحت القيادة المناسبة، ثم حين يجرى التبادل بين الأماخ فى دورات التبادل الإيقاعية، وتظل الواحدة قائمة فى حالة السواء مهما اختلفت القيادة!

التعقيب:

نلاحظ هنا الانتباه باكرا - مهما بلغ الحماس لقبول التعدد واحترام الإيقاعى المستمر - أنه فى لحظة بذاتها وبرغم التأكيد على أهمية تعدد مستويات المخ والوعى طول الوقت، إلا أنه لى تستمر الحياة بكفاءة صحيحة لابد أن تنتظم كل هذه المستويات فى "لحظة بذاتها" فى "واحدة" مهما تباين شحن كل منها بجرعات مختلفة من الطاقة الحيوية.

الإيقاعى: أساس النمو (والإبداع)

يمثل فحص نوابية المرض النفسى والعقلى اختبارا لكفاءة واتجاه ونتاج نبضات النمو، وخاصة لطور

أن نجاح طور البسط التالي يتوقف على نجاح طور التلقى والاستيعاب والاعتماد بالكم المناسب من المعلومات

على مدى نجاح تناول هذا الكم بتنظيم نسبي واستيعاب جزئى من خلال الإيقاع الليلنهاري و"الحلمنومي" يوميا- والعكس صحيح،

ان طور التلقى والاستيعاب يمكن أن يمضى بكفاءة مناسبة اذا سبقه طور بسط استطاع أن يبسط المحتوى السابق فينتقى ليظهر بعضه ويتمثل البعض الآخر

نظرا لتعدد مستويات المخ وتعقد تركيبه، فان الواحدة جارية متغاممة بالتبادل والتكامل وكل آليات الهارموني تجرى بنظام دقيق متناوب والذى ينظم الإيقاع الحيوى فى وقت بذاته هو مستوى واحد (قائد) يعتبر بمثابة "ضابط الإيقاع" Pace Setter، أو المايسترو، فى مرحلة بذاتها

أن هذا المستوى لا يظل هو نفسه متوليا القيادة طول الوقت بل يتبادل مع مستويات أخرى تناسقا لأطوار الإيقاع من جهة، ومع تغير الظروف وحالات الوعى ومتطلبات الواقع من جهة أخرى، لكن تظل الواحدة فى لحظة بذاتها هى الأصل مهما تعددت المستويات نابضة معا تحت القيادة المناسبة، ثم حين يجرى التبادل بين الأماخ فى دورات التبادل الإيقاعية، وتظل الواحدة قائمة فى حالة السواء مهما اختلفت القيادة!

أنه لى تستمر الحياة بكفاءة



البسط، حيث لو كان المحتوى مضطربا ومتاخلا وجامدا فان البسط يعجز عن أداء وظيفته الأساسية بإضافة "الكامن" إلى "الفاعل" جدلا وإبداعا، وإنما سيكون دفعه هو تنشيط عشوائي لكم هائل من المحتوى المشوش دون فرصة كافية للاستيعاب والتمثيل، مما ينتج عنه: تفجر، أو تفسخ، أو تراجع أو "انغلاق في المحل...". ثم مزيد من حشر المعلومات - حتى التي سبق تمثيلها جزئيا - في شكل حشد غير فاعل للمعلومات التي تتحول بذلك إلى "أجسام غريبة"، فتقلب بذلك الإيقاع البيولوجية إلى إعاقة دورية بديلا عن وظيفتها الطبيعية كدفع إلى النماء، مما يُهدد بالتندب والضمور. (5)

مرة أخرى: في حين أن الذي يدفع في حالة القلب هو العضلة، وأن المحتوى هو الدم بلا أى خلط أو تداخل بينهما، فإن الذي ينسبط في حالة المخ هو تنشيط دورى إبداعى بما يحتوى من معلومات كامنة مؤقتا (جينية أو مدخلة)، فالمحتوى هنا هو الوعاء.

وكما أشرت في البداية أن منطلقى كان من ملاحظة نوابية المرض النفسى عامة، وليس فقط جنون الهوس والاكتئاب، فإن هذا يتطلب أن نؤكد مرة أخرى أن هذه النوابية تعنى أن الإيقاع الحيوى للمخ البشرى ليس مجرد ملء ثم ضخ مثل القلب، كما أنه ليس دائرة مغلقة، علما بأن محتوى النبضة في المخ هو جزء منها، ومن ثم كان لزاما أن نتقدم خطوة لتوضح طبيعة المعلومة في علاقتها بما يسمى "بيولوجى".

طبيعة المعلومة من منظور الإيقاعى (فى المخ بالذات):

المقصود بالمعلومة هو كل ما يصل إلى الوجود البشرى (المخ البشرى فى المقدمة) من رسائل ومثيرات.

تهتم العلوم النفسية (والإنسانية عامة) بذلك النوع من المعلومات المتضمنة فى الجهاز الإشارى الرمزى (وأهم تجلياته: الكلام واللغة)، غير أن الدراسة الأعمق ينبغى أن تمتد إلى المعلومات غير اللفظية التى تعتبر ذات أهمية قصوى وخاصة فى مراحل الطفولة والنكوص والتواصل غير اللفظى (بأنواعه)، بما فى ذلك "الإدراك" حتى عمق طبقاته إلى الحدس، وأيضا نشاطات الإبداع خاصة التشكيلى بما يشمل إدراك المساحة والزمن واللون وأيضا بعض العلاج النفسى خاصة المكثف، والجمعى وعلاج الوسط، ومن ثم ظهرت نظرية تسمى نظرية "التعاقب Relevance Theory" وفيها تفاصيل هامة عن أولوية وفاعلية التواصل الحركى وغير اللفظى بل وغير الصوتى Non Vocal مقارنة بالتركيز على التواصل الرمزى جدا. (6)

المشكلة الأساسية فى تناول ودراسة موضوع المعلومات بمستويات، وبنائية التعلم والنمو والتطور: تكمن فى العجز عن الفصل بين المعلومة الرمزية المجردة، وبين حضورها كجزء من الكيان "البيولوجى" عامة، لذلك فنحن نرجح أنهما واحد وإن تباعدتا على مستويات مختلفة، وفى مراحل متنوعة من نشاط المخ الإيقاعى فى الصحة والمرض.

المصدر الأول للمعلومات هو الذاكرة الجينية، وبالتالي فالوراثة لا ينبغى أن تعتبر فقط حتما تاريخيا بيولوجيا، بقدر ما تعتبر مصدرا للمعلومات التى تكثفت من خلال خبرات النوع عبر تطوره، ثم ما تجلت به وأضيف عليه من التركيب الأسرى مع الوضع فى الاعتبار أن هذه الخبرات ليست متماثلة طبعا فى قطاعات متنوعة من البشر على اتساع المعمورة، وبطول التاريخ: حسب ظروف التطور لكل ثقافة فرعية فى مختلف المجالات والمسار والجغرافيا والتاريخ والمحيط، ثم يضاف إلى هذه الوراثة التاريخية الوراثة العادية للفرد، باعتبار أن الفرد عند الولادة يكون نتاجا وتلخيصا لهذين الحدين المتداخلين: تاريخ مجموعته بين التقسيمات الفرعية للنوع، وتاريخ عائلته الأقرب، والمهم فى هذا المدخل هو أن نربط الوراثة الأسرية الأحدث بتعلم غائر سابق، تم على مستويات مختلفة، وعلى مراحل متتالية فى تاريخ تطور الفرد امتدادا إلى تاريخ النوع الخاص بجماعته، إلى تاريخ الأنواع الكامنة فيه وبالتالي فان معلومات

صحيحة لأبد أن تنتظم كل هذه المستويات فى "لحظة بذاتها" فى "واحدة" مهما تباين شحن كل منها بجرامات مختلفة من الطاقة الحيوية.

لو كان المحتوى مضطربا ومتاخلا وجامدا فان البسط يعجز عن أداء وظيفته الأساسية بإضافة "الكامن" إلى "الفاعل" جدلا وإبداعا

أن الذى يدفع فى حالة القلب هو العضلة، وأن المحتوى هو الدم بلا أى خلط أو تداخل بينهما، فإن الذى ينسبط فى حالة المخ هو تنشيط دورى إبداعى بما يحتوى من معلومات كامنة مؤقتا (جينية أو مدخلة)، فالمحتوى هنا هو الوعاء.

أن منطلقى كان من ملاحظة نوابية المرض النفسى عامة، وليس فقط جنون الهوس والاكتئاب، فإن هذا يتطلب أن نؤكد مرة أخرى أن هذه النوابية تعنى أن الإيقاع الحيوى للمخ البشرى ليس مجرد ملء ثم ضخ مثل القلب، كما أنه ليس دائرة مغلقة

أن محتوى النبضة فى المخ هو جزء منها، ومن ثم كان لزاما أن نتقدم خطوة لتوضح طبيعة المعلومة فى علاقتها بما يسمى "بيولوجى".

المشكلة الأساسية فى تناول ودراسة موضوع المعلومات بمستويات، وبنائية التعلم والنمو والتطور: تكمن فى العجز عن الفصل بين المعلومة الرمزية المجردة، وبين حضورها كجزء من الكيان "البيولوجى" عامة

المصدر الأول للمعلومات هو

الذاكرة الجينية تختلف من البداية من جماعة إلى جماعة ومن أسرة إلى أسرة، وهي تظل مرتبة في طبقات تقابل بصفة عامة: مراحل التطور النوعي والأسرى، وتصبح مسيرة الفرد من خلال نبضات إيقاعه الحيوي المختلفة الأطوال: هي الوسيلة التي تتقدم بهذه المعلومات خطوة خطوة نحو تشكيل أرقى يستوعب أكثر فأكثر المراحل الناقصة الاستيعاب، ويتجاوز البناء إلى ولاف أعلى، ما أمكن ذلك، متفاعلا طول الوقت تفاعلا جدليا مع المعلومات المدخلة من التعلم الأحدث المكتسب، وبألفاظ أخرى نقول:

إن وظيفة الإيقاع الحيوي هي أن يتقدم باستمرار وبصفة دورية لا تتوقف، يتقدم بهذه المادة الأولية خطوات تطويرية أخرى باضطراد نابض نحو تشكيل الولايف المحتمل بالتفاعل الجدلي مع المعلومات الجديدة، فهو يسمح بالتنشيط للاستعادة كما يحفز للممثل الولايفي في نفس الوقت في حالة نجاح مسيرة النمو والتطور.

جدل الخارج والداخل:

هكذا نستطيع أن نتصور عملية التعلم على أنها إبداع يوماوي دائم، وهي تتم على أساس "تشكيلي" في نفس الوقت، كما يمكن أن نميز بين درجات انتظام المعلومة في الكل البنائي للمخ من أول درجة "الجسم الغريب" غير القابل للاجترار المعاوذ ==> حتى درجة الالتحام الجدلي الكامل المغير للفرد فالنوع ذاته على المدى الطويل. ويتم الانتقال من المستوى الأسطح إلى المستوى الأعمق أثناء نبضات الإيقاع الحيوي الليلينهارى (اليوماوي) وكذلك أثناء نبضات الإيقاع الحيوي الأطول من خلال البسط والتمدد في دورات النمو،

واليكم توضيح آخر: إن كل معلومة تورث من تاريخ الحياة أو تدخل ابتداءً كجسم غريب سببياً، تكون عرضة للتنشيط وإعادة الترتيب فاحتمال التمثل الأكمل من خلال الإيقاع الحيوي المستمر، على أن ثمة معلومات لها دلالة تطويرية خاصة، وفي نفس الوقت لا يستطيع الكيان الفردى تمثلها بالدرجة الكافية أثناء المدى المحدود لحياته كفرد، فتصبح قابلة للانتقال عبر الذاكرة الجينية لتتجدد فرصة استيعابها - بعضها أو كلها - من خلال الإيقاع الحيوي الممتد عبر الأجيال.

تجدد هنا إعادة التذكرة كيف أن المعلومة هي كل ما يصل الى الوجود البشرى الممثل أساساً - وليس تماماً- في المخ البشرى والممتد إلى كل خلية وكل "دنا DNA"، من "رسائل" و"مثيرات" وأفضل أن أذكر بضرورة التفرقة بوضوح بين ما هو مثير بمعنى Stimulus وما هو رسالة بمعنى Message، ففي حين نتوقع أن يثير المثير استجابة ما Response فإن الرسالة يمكن أن تصل وتستقر دون أن تتطلب ردا عاجلاً، أو حتى أجلا محدداً، يفيد ناتج التغيير الذي أحدثته، وقد يظل الرد مؤجلاً بما يتعدى حياة الفرد، فتنتقل الرسالة واحتمال الرد الى الجيل اللاحق، كما أشرنا وهكذا، يسرى عليها ما يسرى على الذاكرة الجينية التي أشرنا إليها سالفاً، وقد تُستعاد الرسالة المؤجلة بشكل نشط في أطوار بسط الإيقاعحيوي خاصة، ويكون الرد - بالنمو والتطور - حينذاك أكثر احتمالاً.

وكما سبق أن ذكرنا أن العلوم النفسية (والإنسانية عامة) تهتم أكثر بذلك النوع من المعلومات المتضمنة في الجهاز الإشارى الرمزي (المسمى غالباً: اللغة)، غير أن الدراسات الأعمق - حين تتوفر الإمكانات- تمتد الى المعلومات غير اللفظية التي تعتبر ذات أهمية قصوى وخاصة في مراحل الطفولة والنكوص والعلاج النفسى وخاصة الجمعي (بأنواعه) والإبداع، فكل الأحياء قبل الإنسان تدع و تنمو وتبقى) ما يبقى منها (دون رموز ومقالات وكتب ومحطات فضائية وتواصل اجتماعى محمول!!

هكذا نميز بشكل لازم بين:

“المعلومة” الذاكرة المستعادة،

والمعلومة” المشحونة الكامنة” الثابتة،

والمعلومة” مشروع الكيان البنائى النمائى الإبداعى.”

الذاكرة الجينية، وبالتالي فالوراثة لا ينبغي أن تعتبر فقط حتماً تاريخياً بيولوجياً، بقدر ما تعتبر مصدراً للمعلومات التي تُكتسب من خلال خبرات النوع عبر تطوره، ثم ما تجلبه به وأضيفه عليه من التركيب الأسرى

المصم في هذا المدخل هو أن نربط الوراثة الأسرية الأحدث بتعلمه نماذج سابق، ثم على مستويات مختلفة، وعلى مراحل متتالية هي تاريخ تطور الفرد امتداداً إلى تاريخ النوع الخاص بجماعته، إلى تاريخ الأنواع الكامنة فيه

إن معلومات الذاكرة الجينية تختلف من البداية من جماعة إلى جماعة ومن أسرة إلى أسرة، وهي تظل مرتبة في طبقات تقابل بصفة عامة: مراحل التطور النوعي والأسرى

تصبح مسيرة الفرد من خلال نبضات إيقاعه الحيوي المختلفة الأطوال: هي الوسيلة التي تتقدم بهذه المعلومات خطوة خطوة نحو تشكيل أرقى يستوعب أكثر فأكثر المراحل الناقصة الاستيعاب، ويتجاوز البناء إلى ولاف أعلى، ما أمكن ذلك، متفاعلا طول الوقت تفاعلا جدليا مع المعلومات المدخلة من التعلم الأحدث المكتسب

إن وظيفة الإيقاع الحيوي هي أن يتقدم باستمرار وبصفة دورية لا تتوقف، يتقدم بهذه المادة الأولية خطوات تطويرية أخرى باضطراد نابض نحو تشكيل الولايف المحتمل بالتفاعل الجدلي مع المعلومات الجديدة

نستطيع أن نتصور عملية

التعلم على أنها إبداع يومياً
دائم، وهي تتم على أساس
"تشكيلي" في نفس الوقت

إن كل معلومة تورث من
تاريخ الحياة أو تدخل ابتداءً
كجسم غريب نسبياً، تكون
معرضة للتخفيف وإعادة
الترتيب فاحتمال التمثيل
الأكمل من خلال الإيقاع
الحيوي المستمر

ثمة معلومات لها دلالة
تطورية خاصة، وهي نفس
الوقت لا يستطيع الكيان
الفردى تمثلها بالدرجة
الكافية أثناء المدى المحدود
لحياته كفرد، فتصبح قابلة
للانتقال عبر الذاكرة الجينية
لتتجدد فرصة استيعابها -
بعضها أو كلها - من خلال
الإيقاع الحيوي الممتد عبر
الأجيال

أذكر بضرورة التفرقة بوضع
بين ما هو مثير بمعنى
Stimulus وما هو رسالة
Message بمعنى

نتوقع أن يثير المثير استجابة
ما Response فإن الرسالة
يمكن أن تصل وتستقر دون
أن تتطلب ردًا عاجلاً، أو حتى
أجلاً محددًا، يفيد ناتج التغيير
الذي أحدثته، وقد يظل الرد
مؤجلاً بما يتعدى حياة الفرد،
فتنتقل الرسالة واحتمال الرد
إلى الجيل اللاحق

إن التناسب بين جرعة
المعلومات المنشطة والمُدخلة،
وبين قدرة الكائن الحيوي
على استيعابها هو الذي
يحدد نوع التعلم من جهة،
ونتاج النبض الحيوي من جهة
أخرى

إن المعلومة: سواء كانت

ثم إن التناسب بين جرعة المعلومات المنشطة والمُدخلة، وبين قدرة الكائن الحيوي على استيعابها هو
الذي يحدد نوع التعلم من جهة، ونتاج النبض الحيوي من جهة أخرى وهنا يجدر بنا أن نراجع ابتداءً
تدهور استعمال كلمة "بيولوجي" خاصة بعد أن كادت تختزل تماماً إلى لفظ "كيميائي" أو "عضوي"، وأنا
أصر على استعمالها بمعناها الشامل الأصلي، أى بمعنى "حيوي"، فتشمل كل ما يتعلق بما هو "حياة"
ولتأكيد هذا المعنى: فاني أستعمل لفظ "التغذية البيولوجية" في مجال: تناسب جرعة ونوع المعلومة مع
احتياج المخ للهارموني والفاعلية "من معلومة بذاتها، ومن هذا المنطلق فإن المعلومة: سواء كانت
رمزية لغوية، أم رسالة حيوية غير لفظية، هي المصدر الأساسى والوحدة الأولية لتنظيم الخلية، ناهيك
عن تنظيم المخ وبنائه ومواكبة إيقاعه، وهي جزء لا يتجزأ من "تركيب المخ" وليست مجرد محتواه،
فالمخ ليس وعاء به معلومات، ولكنه مادة حيوية من معلومات دائمة التشكل بمزيد من المعلومات
من خلال تنشيط الموجود، واستيعاب المُدخل في نبض "إيقاعى دائم".

وهذا يذكرنا بالمفهوم الأحدث فى علم الأثنروبولوجيا (علم الأعراق البشرية) لظاهرة البصم
"Imprinting" كإحدى وسائل التعلم، وإن كانت الأبحاث المتعلقة بهذا الموضوع قد ركزت أساساً على
كيفية ظهور التعلم المبصوم دون التعمق فى شرح عملية كيفية بصم هذه المعلومة، أو كيفية تمثيلها
أصلاً، وليس مجرد إطلاقها من مكمنها (7)
وما دامت المعلومات تُنشط وتُفعَلَن فى مستويات متصاعدة، وبدرجات مختلفة نوعياً، ولما كان
الإيقاع الحيوي بطوره يساهم فى عمليات التنسيق: فإن عملية النمو سوف تستمر وتضطرد فى
مسارها الطبيعي بلا توقف إلا لمرض.

وبعد

إن مجرد محاولة استيعاب الطبيعة عامة، والطبيعة البشرية خاصة من خلال مواكبة هذا النشاط
الإيقاعى المستمر ليل نهار، حلماً ويقظة، خليق بأن يغير نظرتنا إلى الحياة، أملاً فى مواكبة نظامها
كما نظمها خالقها،
إن الإنسان وجد على هذه الأرض وهو يحمل تاريخ كل الأحياء، ثم ها هو يولد من بطن أمه
محملاً به أيضاً، فيكتشف أنه فى نبض دائم، نبض يتيح له فرصة استيعاب وإبداع كل ما حوى مما به
أو وصله. أى كل ما يحوى منذ ولادته، وكل ما احتوى من أسرته وأجداده، بل وكل ما احتوى من
نوعه. فتزويد الأمانة ويتجدد الأمل كل ليلة (بل كل نبضة!!).

.....

(ونكمل الأسبوع القادم)

بتقديم الفصل الرابع: "مسارات الوعي وتشكيلات
المعلومات"

- [1] انتهيت من مراجعة أصول "الطبنفسى الإيقاعى
التطورى" وهو من ثلاث أبواب: وسوف نواصل النشر البطل
آملاً فى حوار، منشورات جمعية الطب النفسى التطورى (2021)
(تحت الطبع)

- [2] كنت محتاراً آنذاك فى العثور على ترجمة مناسبة
لكلمة Circadian، فتصورت أن لفظ "الليلنهاري" قد يصلح
رغم طولها، ولكنى بعد ذلك وجدت أن لفظ "اليوماوى" هو لفظ
مناسب لأن اليوم يشمل دورة كاملة الليل والنهار معاً
"Norman Doidge: The Brain That Changes Itself"- [3]
Stories of Personal Triumph from the Frontiers of
Brain science" Edited by: Norman Doidge ,
M.D. Copyright: 2007

- [4] لم استقر بعد على تسميتها طورى التلقى
والاستيعاب، أو الإدخال والتمثيل مع التذكرة بأن دورات
نبض المخ ليست بهذا الاستقطاب الثنائى، ومع ذلك فعلى

أن نتذكر أن التمثيل هنا هو أقرب إلى التمثيل الغذائي Metabolism المسمى الآن "الأيض"، لكنني لست موافقا تماما على سلامة التشبيه!!

- [5] هذا، وقد كنت أترجم كلمة Scarring بالانجليزية إلى "الاندمال" ثم اكتشفت الآن أن الترجمة الأصح هي التندب (من ندب "ندوبا") وهو التليف، وهو يعنى هنا فقد المرونة والمطاوعة، ومن ثم التوقف عن النمو وهمود النبض (الايقاعحيوى) أو انحرافه، أما الاندمال فهو يعنى الالتئام وهو عكس ما كنت استعمله فيه

- [6] نظرية التعلق (Theory of Relevence الملائمة) لدان سبريبر وديردر ويلسن، وقد اسسنا نظريتهما، اعتمادا على مناقشة كثير من آراء من سبقوهما من فلاسفة اللغة وعلماء التداولية، فى كثير من القضايا التواصلية، وعلى رأس هؤلاء الفلاسفة بول غرايس، الذى مهد بنظرية الاستلزام الحوارى الطريق لميلاد نظرية تداولية معرفية هي نظرية المناسبة (الملاءمة) ، التى تمثل التجسيد الفعلى للمنتور المعرفى فى دراسة عملية التواصل.

ويمكن الرجوع إلى موقع المؤلف للاطلاع على بعض ما قدم فى ندوة من ندوات مؤسسة الرخاوى للتدريب والأبحاث العلمية بتاريخ (2020/6/15) عن نظرية التعلق

Relevance Theory بعنوان: "المخ كفاعل للطاقة والمعلومات" وفيها بعض التفاصيل www.rakhawy.net
-Dan Sperber and Deirdre Wilson "Relevance Communication and Cognition "Second Edition First published 1986

- [7] وقد حاولت أن أنبه على هذا النوع من التعلم (فى مقابل التعلم الشرطى) وخاصة من حيث ارتباطه بدلالة المعلومة تطوريا وطور الايقاعحيوى أنظر كتابي: "دليل الطالب الذكى (1) فى علم النفس والطب النفسى"، الفصل الرابع، التعلم، ص 115، كما أشرت الى دوره فى السيكوباثولوجى. كتابي "دراسة فى علم السيكوباثولوجى"، (1979) صفحات (30، 31، 78، 85، 684).

إرتباط كامل النص مع المقتطفات:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD020122.pdf>

إرتباط كامل النص:

<https://rakhawy.net/%d9%85%d9%82%d8%aa%d8%b7%d9%81%d8%a7%d8%aa-%d9%83%d8%aa%d8%a7%d8%a8-%d8%a7%d9%84%d8%b7%d8%a8%d9%86%d9%81%d8%b3%d9%89-%d8%a7%d9%84%d8%a5%d9%8a%d9%82%d8%a7%d8%b9%d8%ad%d9%8a%d9%88%d9%89-%d8%a7-9/>

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقياً بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2021 لـ " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار العاشر)

الشبكة تدخل عامها 21 من التأسيس و 19 على الويب

21 عاما من الضج... 19 عاما من الإنجازات

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

رمزية لغوية، أم رسالة حيوية
تعبير لفظية، هى المصدر
الأساسى والوحدة الأولية
تنظيم الخلية، ناهيك عن
تنظيم المخ وبنائه ومحاكاة
إيقاعه، وهى جزء لا يتجزأ من
"تركيب المخ" وليست مجرد
محتواه

المخ ليس وحاء به معلومات،
ولكنه مادة حيوية من
معلومات دائمة التشكل
بمزيد من المعلومات من خلال
تنشيط الموجود، واستيعاب
المُدخل فى نبض "إيقاعحيوى"
دائم

ما دامت المعلومات تُنشط
وثُمَّ عُلِنَ فى مستويات
متعددة، وبدرجات مختلفة
نوعياً، ولما كان الإيقاع
الحيوى بطوريه يساهم فى
عمليات التنسيق: فإن عملية
النمو سوف تستمر وتضطر
فى مسارها الطبيعى بلا توقف
إلا لمرض